النصر أو الشهادة

في ساعة استراحة نهارية، وأثناء ما كان متحللا من ملابسه العسكرية، يقتعد الأرض مستندا على وسادة من الصوف، دهم الغرفة النائب ضابط وأوعز له بالتجهز الكامل، فآمر السرية أمر بالخروج في دورية آلية، انتتر قائما، ليس من عادته مناقشة الأمر العسكري، ارتدى قميصه الخاكي، ثم اخترقت ساقه تجويف البنطلون السميك، عدل وضع النطاق على خصره، تسربل الدرع الفولاذي، اعتمر الخوذة، وبارتدائه البسطال اكتمل زيه العسكري. تنكب سلاحه، هم بالخروج، بيد أنه تذكر أمرا لابد منه، خطا نحو الدولاب الحديدي، فتحه، أخرج منه رصاصة، يسميها رصاصة الرحمة، اعتاد على حملها معه في دورية التفتيش. خرج إلى حيث تصطف الهمرات، صعد إحداها، كان أول المتأهبين. بعد أقل من نصف ساعة اكتمل العدد، تحركت الدورية المتألفة من ثلاث سيارات همر، مزودة بأحاديات مقاتلة، جلس في الكرسي الخلفي، سلاحه بين فخذيه، يبعد عن تفكيره أي خاطر من شأنه أن يثبط همته. اتجهت الدورية إلى المدينة القريبة التي لا ينفكون عن التجول في شوارعها الفارغة بين آونة وأخرى، رغم خلوها من البشر فالتحوط الأمني واجب عليهم، سيما أن العدو ليس عنهم ببعيد. يسيرون في شارع ترابي، ثم يعتلون التبليط المؤدي إلى تلك المدينة.

بناياتها تلوح في الأفق، اقتربوا منها، اتقد ذهنه، استنفر كل حواسه، اتسعت حدقتا عينيه، وصلوها، ولجوا أول شارع يخترقها، يرقب عبر زجاج النافذة الصغيرة البيوت المهجورة، والمحلات المقفلة، بنايات مهدمة وأخرى نخرها الرصاص فتركها جدارية تعلن عن معارك عنيفة جرت قربها، ومواجهات حامية كانت نيرانها تلتهب في جوف هذه الشوارع وبين الأزقة، وحرب شوارع تحتدم بين آونة وأخرى.

تتوغل الدورية في عمق المدينة الخاوية على عروشها، شلت الحياة بداخلها، وكأن أهلها قد هجروها وتركوا ما فيها. ثمة كلب أجرب يمشي على مهل، ترتفع رجله لتحك جلده المتساقط، ينبح عليهم عن بعد، وكلاب أخرى سائبة تتجمع على جيفة تأكلها. انحرفت الدورية يسارا، ثم دخلت زقاقا ضيقا، بيوته مشرعة بواباتها الكبيرة، تتلاعب فيها الرياح، وأخرى محكمة أقفالها الحديدية. خرجوا من الزقاق الضيق إلى آخر عريض، انعطفوا يمينا، وقبل أن يصلوا الشارع الرئيس، توقفت الهمر التي أمامهم بشكل فجائي، ضغط السائق على الكابح، ارتطم رأسه بالنافذة، ثمة أصوات لإطلاق نار، أمسك بندقيته بهاجس لا شعوري، الجندي المتمترس خلف الأحادية يرد على مصدر الهجوم برصاص كثيف، جاء الأمر عبر اللاسلكي بالانتشار السريع، فتح الجندي الجالس أمامه الباب، نزلوا تباعا، هبط الجنود من آلياتهم، كما ترجل آمر الدورية، أصدر أوامره بإطلاق النار تجاه بيت ذي طابقين، فتح الأمان، سحب الأقسام، أطلق معهم النار، خمد مصدر الرصاص جراء الرد العنيف، قال الآمر:

\_هيا.. اقتحموا البيت قبل أن يفروا.

كان أول المندفعين، تسور الباب الخارجي، قفز إلى الداخل، تبعه الجنود، تجمهروا قرب الباب الداخلي، خشي من هجوم مباغت يأتيهم على حين غرة، دفر الباب، انفرجت ضلفتاه، رمى أحد الجنود رمانة يدوية، انفجرت في الداخل، رجعوا إلى الخلف، أتبعوها برمانة ثانية، نادوا على من يتواجدون في الداخل أن يسلموا أنفسهم، وإلا فالموت نصيبهم، لم يرد أحد، صمت مطبق على المكان، أشر له النائب ضابط أن يقتحم البيت، دهمه شاهرا سلاحه، الأثاث مبعثر من عصف الانفجار، الزجاج مهشم والشظى متناثر على الأرضية الموزائيكية، نده عليهم أن يتبعوه، فلا أحد هنا، دخلوا وشرعوا بتفتيش الغرف جميعها، اقترح على زميليه أن يصعدا معه للطابق الثاني، رقوا السلم عدوا، اقتحموا غرفه الفارغة. تمتم زميله:

\_لا شيء.

قال على الفور:

\_إلى السطح.

أكملوا صعودهم بحذر، أطل برأسه، لا أحد، يده تضغط على الزناد تأهبا لأية حركة، اندفع في فضاء السطح، التف حول نفسه، لم يجد شيئا، هبط زميلاه، اشرأب برأسه أعلى السياج، استطلع البيوت المجاورة، تتفرق الأطباق البيضاء على سطوحها، مما يوحي بوجود الحياة هنا في الماضي القريب. همهم مع نفسه:

\_ستعود حتما.

دوت إطلاقة نار شطحت رصاصتها على خوذة رأسه، ألقى نفسا أرضا، فانطلقت رصاصة عشوائية من بندقيته تبددت في السماء، تمدد على بطنه، سلاحه مجدول تحت ذراعه، لن يتركه، نهض، ثمة ثقب واسع في الحائط، مد ماسورة البندقية خلاله، حدق في الناظور، بحث عن الهدف، أدارها قليلا، وجد مبتغاه، اثنان من المسلحين يتمركزان خلف خزان ماء كبير، يظنانه قد مات، حدد الهدف، قطع نفسه، ثم ضغط على الزناد، رآه يسقط، اختفى الآخر خلف الخزان، بقي يرقبه، مد رأسه فأطلق عليه رصاصة لم تصبه، همهم بحرقة:

\_لن أدعك تفلت.

يرقبه بانتباه، لن يطول اختباؤه، ما إن يتحرك سوف يقنصه، انتظر لدقائق، لمح ساقه من الجهة الثانية، حدث نفسه:

\_إنه يروم القفز على سطح آخر.

سدد على قدمه، أصابه، ترنح ثم هوى أرضا، لم يزل يتلوى، أجهز عليه بعدة إطلاقات، انتظر قليلا، عسى أن يظفر بصيد جديد، رجع القهقرى حبوا، هبط السلم قفزا كي يصل جماعته فقد يستبطئونه، لم يجد أحدا في الطابق الأرضي، عدا نحو الباب الخارجي، خرج إلى الشارع، لم يجد الدورية ولا أيا من زملائه.

\_أين ذهبوا؟.

التفت يسارا، الشارع يصفر من كل شيء، استدار يمينا، شاهد همراتهم مولية ظهرها إلى المعسكر، مهما أومأ بيده فلن يروه، رمى أطلاقة نار، بيد أنها ضاعت في تلافيف الفضاء ولم تجد نفعا، ركبوا الطريق السريع مغادرين، لقد نسوه في هذا المكان المهجور، كل مجموعة تحسبه صعد مع الأخرى، فانسحبوا إلى ثكنتهم آمنين. خطرت له فكرة أن يتصل بهم هاتفيا، بحث عن هاتفه النقال.

\_اللعنة!.

لقد تركه على السرير، يالها من معضلة، لا يسمع سوى هسيس الصمت، هبة هواء حارة تلفح وجهه، دلكت الشمس نحو الغروب، سوف يفتقدونه، ومن المحتم أنهم سيعودون للبحث عنه. أين ينتظرهم؟ وإذا ما ظهر المسلحون ثانية، ماذا سيفعل حينها؟. إنهم متواجدون في أحد البيوت، لربما انبثقوا من تحت الأرض فجأة. قتل اثنين منهم قبل قليل، لن يرحموه إذا ما أمسكوا به. لم يزل وسط الشارع، تراهم رصدوه ولا يريدون قتله، بل القبض عليه حيا، ابتلع ريقه، رجع بهدوء قرب سياج البيت، هل يدخله بانتظار الدورية؟ ولكنهم هنا، وفي هذه المنطقة تحديدا، التصق بالحائط، أحكم أمساك البندقية، أنفاسه تتردد، صدره يعلو ويهبط، دخل باحة البيت، إنه مكشوف أيضا، هل يصعد إلى السطح؟ ولكن.. ماذا إن رجعت الدورية بحثا عنه؟ كيف يجدونه؟ إذا ما أطل من خلف سطحه العالي فسيراه القاصي والداني. ثمة موضع عسكري مهجور في ساحة خلف الشارع، ليذهب إليه ويختبيء به، فهو بعيد عن البيوت، في وضع يسمح له بالمراقبة جيدا ريثما يعودون صحبه. ركض بأقصى سرعة، ما إن وصله حتى ألقى نفسه في جوفه، خفض رأسه، أحس بالأمان متأملا سرعة عودتهم لأخذه.

الموضع ظاهر للعيان، بيد أنه مهمل منذ أمد، بعض من خراطيش الرصاص تتفرق بداخله، قنينة ماء فارغة، وبعض من الأوراق تجمعت حول بقايا براز متيبس، رفع نظره إلى السماء، زرقاء صافية، لا يعكرها غيم، ولا يرجى منها مطر، أنزل بصره، أجاله في البيوت المتراصة أمامه، ثمة سيارة تأتي من بعيد، يرتفع فوقها علم أسود، تبعتها ثانية وثالثة، هبط منها مسلحون بزيهم الأسود الفضفاض، وبساطيلهم الثقيلة، يرقبهم من ثقب صغير خلف الساتر الترابي، دخلو البيوت في عملية تفتيش سريعة، تراهم بيحثون عنه، أم ماذا؟ خرجوا من بيت ودخلوا آخرا، يتقدم اثنان تجاهه، لعلهم يريدون البحث في هذا الموضع، يتمشيان على مهل، لن يتوقفا إلا فوق رأسه، عندها سوف يمسكانه، لم يزالا يسيران نحوه، وضع أصبعه على الزناد، اقتربا أكثر، رفع رأسه، سدد نحوهما سلاحه، أطلق عليهما عن قرب، أرداهما قتيلين، استنفار وفوضى تعم الآخرين، انبطحوا أرضا، تواروا خلف سياراتهم، أطلقوا عليه النار من حيث لا يشعر، انهمر الرصاص كما المطر، لم يستطع مبادلتهم الرمي، خفض رأسه وانتظر حتفه، تقدم نحوه ثلاثة منهم، يزحفون بسرعة تحاكي سحالي الصحراء، صوب على أحدهما، أصابه بمقتل، تراجع الاثنان الآخران، صمت يعم المكان، تأتيه أصواتهم.

\_سلم نفسك ولك الأمان.

همهم:

\_لا أمان لكم!.

كرر قائدهم النداء عاليا:

\_اخرج من موضعك، ارفع يديك ولن نؤذيك.

أصبح محاصرا، وشبح الموت يلوح له، أهون ما قد يحدث له أن يفرغوا مخزن رصاص في جسده، أما إن سلم نفسه لهم!. انبثقت له صورة ابنه، استدعاه خياله الخصب، رآه مبتسما، بادله الابتسامة، هل أشرق وجهه لمرأى ابنه أم للموت؟. ينادون عليه أن يسلم نفسه، وهذا ما لن يحدث، سيقاومهم حتى الرمق الأخير، حدق فيهم خلال ثقب صغير، لم يعر لنداءاتهم أذن صاغية، ما إن نهض أحدهم حتى طشر رأسه بتسديدة صائبة، كان ولا يزال أحسن الرماة في اللواء، رصاصته لا تخطيء أبدا. لعلع الرصاص عليه، عرفوا ألا فائدة ترجى من استدراجه، استنفر كل قواه للدفاع عن نفسه، يتطاير الرصاص أعلى رأسه، وينغرز في أكياس الخيش الممتلئة بالتراب، توقفوا وكرروا النداء:

\_سلم نفسك.. صدقنا لن نؤذيك.

صاح رجل آخر:

\_لك الأمان.. لن نقتلك، سوف نكرمك ونعاملك معاملة الأسرى.

انهم يصرون على الامساك به حيا، ليتم تصويره أثناء التمثيل به، ماذا لو رأت أمه مشهد قتله، ستموت عليه كمدا، زوجته التي ودعته بقبلة صباحية دافئة، هل كانت تعلم بأنها قبلة الوداع؟ ماذا لو سحقوه في دبابة أو همر عسكري، بأي حال تشاهد مقتله؟. لوى شفتيه لسخف الموقف الذي وجد به نفسه، هل قدر له أن يكون حتفه ناجما عن هفوة بسيطة؟ لا يعرف السبب في تذكره ليلة زفافه؟ عروسه ترتدي فستان عرسها الأبيض، بدا وجهها مثل قرص الشمس، انفرد بها، وكان يتمنى هذه الخلوة منذ خمس سنوات، مذ رآها أول مرة أثناء زيارتها لأخته في بيتهم، دوخه جمالها، فأقفلت مفاتيح مخه على خطبتها، كانت طالبة مرحلة ثانية في الكلية، تزهو بجمال ملائكي، وتختال على كل من يروم الاقتراب منها، تبحث عن قرين لها في الثقافة ومواز لها في التحصيل العلمي. توسط لدى أخته كي تقنعها به، رفضت بأعذار واهية.

\_أخوك لا يحمل شهادة، وأنا أريد واحد خريج.

لم ييأس، تقدم لها بنفسه، وقف أمامها بشجاعة، وعرض عليها الزواج، تفرسته جيدا، رأت العشق يلمع في عينيه الثاقبتين، والرجولة تنط في تقاسيم وجهه، تلكأت أمام إصراره، وأحست بأنوثتها في حضرته، هذا ما اعترفت به بعد الزاج.

لم يزل الرصاص يتوالى عليه، ولم يتضعضع في مقاومتهم، أحدهم يأتي إليه راكضا، يسند سلاحه على صدره ويطلق الرصاص بشكل عشوائي، إنه يقترب، رصاصه يتطاير بعيدا نظرا لحركته أثناء الركض، توقف صحبه عن الرمي. بسرعة خاطفة، نهض، رماه، ثم خفض رأسه. نظر من الثقب الصغير، لمحه ساقطا، هرع نحوه أحدهم محني الظهر، بغية انقاذه، أردفه برصاصة قاتلة، سقط قربه، جن جنونهم إزاء هذا الجندي الذي شتت شملهم، زحف عليه أربعة، فيما اشتغل عليه الرصاص، سدد على أحد الزاحفين إلا أن البندقية توقفت عن الرمي، نفذت إطلاقاته، حم القضاء وحانت ساعة الموت، هل يستسلم؟ حتى وإن لم يسلم لهم نفسه، سوف يلقون عليه القبض بعد حين، لاحت له صورة أمه ترقص يوم زفافه، وعروسه تخطر بحلتها البيضاء، ممسكة بكفه لئلا يهرب منها، رضخت لحبه ووافقت عليه، أحبته مثلما أحبها. كم ستبكيان عليه هما الاثنتان، أمه وزوجته. أما البكاءة الثالثة، والتي لن تكف عنه حزنها أبد الدهر.. فهي أخته.

توقف الرمي، كأنهم يجسون نبضه، لمعرفة ما يدخره لهم من رصاص، صمت يعم المكان، سكوتهم يطبق عليه، ماذا ينتظرون؟ لم لا يأتون؟ فليخلصوه مما هو فيه، أصعب ما يكون على المرء انتظار الموت. اطمئنوا.. فليس لدي ما أدافع به عن نفسي، نفدت كل مؤونتي. قتلت منكم العدد الوفير، ليس اليوم فحسب، بل منذ عشر سنين وأنا أفتك بكم أيها الأوغاد. وها قد دارت الدوائر، ستمسكونني حيا لتفعلوا بي ما تشاؤون، لربما ذبحتموني كما الشاة، ولكن كلا.. لن أمنحكم هذه المتعة. قدحت بذهنه فكرة ليس منها بد. تذكر الرصاصة التي في جيبه، رصاصة الرحمة، لقد آن أوانها، أخرجها بسرعة، ألقمها مخزن البندقية الفارغ، ركبه، سحب الأقسام، رفع رأسه، فوجيء بهم يحاصرونه، يزحفون عليه من كل الجهات، وضع فم السبطانة بين شفتيه، لسعته حرارتها، كز عليها بأسنانه، أصبعة على الزناد، صورة ابنته ذات الثلاث سنوات تلوح له، عيناها ترجوانه ألا يفعلها، هناك متسع من الوقت، اتخذ قراره، أخرجها من بين فكيه، يصك سمعه هدير أحادية ترعد غضبا، يستوي أرضا، يتبعها رصاص من مختلف الأسلحة، هل قرروا الاجهاز عليه في مكانه بدلا من سحله أسيرا؟. لن أنتحر، وستكون رصاصة الرحمة في صدورهم، ومن بعدها فليأت الطوفان. تلتهب السماء بإطلاقات كثيفة، تتناهى لسمعه أصواتهم المرعوبة رغم ضوضاء الرمي، الرصاص بعيد عنه، لا يدك معقله، وليس موجها نحوه، أصوات سيارات تتحرك، ورصاص ينطلق، انفجار يدوي وصراخ استغاثة، نظر من الكوة الصغيرة، فإذا بإحدى سياراتهم قد التهبت فيها النيران، فيما لاذت السيارتان الأخرتان بالفرار، همرات صحبه تحل مكانها، زملاؤه ينتشرون، يأسرون أحد المسلحين، آليات أخرى تطارد الفارين، انتصب قائما، أخرج الرصاصة، أرجعها إلى جيبه.